

المكتبات المركزية ودورها في تعزيز مكانة  
اللغة العربية قديماً وحديثاً

الأستاذ الدكتور

فاضل بنيان محمد

كلية الآداب / الجامعة العراقية

## المكتبات المركزية ودورها في تعزيز مكانة اللغة العربية قديما وحديثا أ.د. فاضل بنيان محمد / كلية الآداب - الجامعة العراقية

تنبه الإنسان منذ القدم إلى أهمية المكتبة بوصفها إحدى خزائن المعرفة التي يبقى المرء بفضلها ينهل مما وضع على رفوفها من مخطوطات وكتب ومؤلفات ، وما احتوت خزائنها من علوم وخبرات و تجارب ، و هكذا فالمكتبة تعد قوام الثقافة لطالب العلم الذي يجد في رحابها ما يزيد من معرفته على وفق اهتمامه و حاجته الفكرية ، و ما من مثقف أو باحث أو طالب علم إلا وقلبه معلق بالمكتبة ، بل يعد رائدا ملتزما من روادها .

وقد أدركت المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا ضرورة ان تمتلك المكتبات - ولاسيما المركزية منها- المعلومات العلمية الموثقة عن طريق احتواء أمهات الكتب العلمية المهمة و النافعة ، فضلا عن المخطوطات و المجالات ، وبذلك تكون المكتبة العلمية عاملا مؤثرا وفعالا بوصفها قناة الاتصال العلمية الأولى للطالب و الأستاذ والباحث على حد سواء ، و ذلك بتوفير المصادر و نعي بها تلك الكتب القديمة الرصينة من الناحية العلمية و التي تعد المنهل الرئيس للباحثين و المؤلفين بشكل عام ، فضلا عما هو متوافر منها من مراجع حديثة برؤية معاصرة .

ومن هنا فالمكتبة بإيجاز تلك المؤسسة الثقافية و العلمية التي تقدم خدماتها لأبناء المجتمع في شتى صنوف المعرفة ، بحيث تنظم تنظيمًا معينًا و متعارفا عليه ، وتسلك ابسط الطرق و أيسرها في الوصول للمعلومة .

وفي العصر الحديث أصبحت الحاجة إلى المكتبات المركزية ملحّة ، إذ التنوع في الثقافات و التعدد في التخصصات ، لذلك ازداد الاهتمام بالمكتبات المركزية اسهاما منها في النهوض بالحركة العلمية و البحث العلمي الجاد ونقله إلى واقع ذي مستوى جديد و متميز ، فضلا عن ضرورة ربط النشاط التكويني والتعليمي بالسياسة التنموية للمجتمعات المعاصرة ، بما في المكتبات المركزية من أوعية معلوماتية متنوعة و غزيرة الأمر الذي يدفع إلى تحقيق نوع من التوازن بين العلوم النظرية و جوانبها التطبيقية ، ومن هنا تزداد خبرات جميع الأفراد في المجتمعات العربية المعاصرة و سواها .

و لعل أولى مهام المكتبة المركزية السعي إلى اقتناء الكتب ذات التوجه اللغوي المتخصصة التي بفضلها يتم تزويد المختصين من الباحثين و الطلبة و الكوادر العلمية المتخصصة بما يسهم في إنعاش التعاون و التبادل العلمي للخبرات المكتبية مع مراكز بحثية مختلفة .

ونظرا للتطور الحاصل في خضم الثورة المعلوماتية فقد شهدت المكتبات المركزية تطورا هائلا في مضمار تقديم المعلومات للقراء والباحثين ، وهكذا فالتطور حدث على مستوى الشكل و نوع الأوعية المعلوماتية ومن ثم الخدمة المقدمة ، ومن هنا فقد أصبح لزاما على كل مكتبة مركزية أن يكون لها كادر إداري متخصص يحسن التعامل مع الأعمال الإدارية و الفنية حتى عرفوا بأخصائيي المعلومات ، في عصر يعرف بعصر (انفجار المعلومات) .

لقد فرض التطور المعاصر في المعلومات إلى ضرورة مواكبة المكتبة المركزية التطور الهائل و الكبير في المعلومات و التقنيات الحديثة الأمر الذي فرض بدوره الحاجة إلى ازدياد الأعداد الكبيرة للكتب والدوريات و المجالات ، ومن هنا سعت المكتبات المركزية إلى اتخاذ إجراءات عملية من شأنها الإسهام في التواصل و إرساء علاقات موازية للمستوى المحلي و الدولي و إتمام مقتنياتها الالكترونية الحديثة والاندماج في الشبكات العالمية مع مراعاة الحرص على توظيف اللغة العربية في مضمار خزن المعلومات و تصنيفها و عرضها على حد سواء .

**المكتبات المركزية بين القدم والحداثة :**

لا تعد المكتبات وليدة العصور الحديثة ، بل وجدت منذ أقدم العصور ، ففي أزمان متباينة عثر المنقبون على ألواح طينية مجموعة في أماكن كثيرة لتشكل النواة الأولى للمكتبات بشكل عام ، إذ تشير الدلائل إلى وجود عدد من تلك المكتبات في العراق ، منها مكتبة مدينة نهر و مكتبة حمورابي و مكتبة تل حرمل و مكتبة مدينة سبار ، و مكتبة نينوى عاصمة الدولة الآشورية ، تلك المكتبة التي اهتم بجمع خزائنها العامرة بالألواح آشور بانيبال عام 668-626 ق.م ، إذ كان مثقفا ، مهتما بالكثير من المعارف و العلوم التي شاعت في عصره ، لذلك يسعى إلى إرسال نسخها و خطاطيه إلى مختلف البلدان لنسخ الكثير من المؤلفات و في مختلف الموضوعات كالعلوم والآداب و الفنون .

وقد كشفت التقنيات احتواء تلك المكتبة الألواح الاثنا عشر التي تمثل ملحمة جلجامش و دائرة معارف لقواعد اللغة الآشورية<sup>(1)</sup>

وقد رتبت تلك الرقم الطينية على نظام مخصوص ، وكان يدعى بالنظام الملكي ، إذ ترتب على وفق الموضوعات ، مع وضع أرقام تسلسلية إلى الأعمال الكبيرة ، ولكل عمل أرقام معينة ، و في مداخل القاعات والغرف كانت هناك قوائم منقوشة بالمحتويات التي تضمها المكتبة ، وعلى وفق ترتيبها على الرفوف ، وظلت هذه المكتبة عامرة خلال القرنين السابع و السادس قبل الميلاد .

و إذا كانت تلك المكتبة مثلا على المكتبات القديمة في العراق فثمة مكتبات أخرى مهمة في بلاد العرب منها مكتبة وادي النيل التي تعود إلى زمن الفراعنة ، و تحديدا إلى زمن (خوفو) ويعود بعضها إلى زمن الملك (خفرع) باني الهرم الثاني .

ومن أهم المكتبات في وادي النيل كذلك مكتبة الإسكندرية ، التي بناها بطليموس الأول و أراد لها أن تضاهي مكتبة (أثنا) آنذاك .

هذه بعض المكتبات المركزية المهمة في بلاد العرب القديمة ، ناهيك عن المكتبات الأخرى القديمة في بلاد الإغريق التي عرفت منذ القرن السادس قبل الميلاد ، و يعد أرسطو أول من امتلك مكتبة خاصة به .

أما المكتبات المركزية في بلاد الصين فقد بدأ نشاطها العلمي يتبلور منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، هذه بإيجاز أهم المكتبات المركزية القديمة .

و حين نصل إلى العصور الإسلامية نجد أن المكتبات المركزية بدأت تؤسس اعتمادا على اهتمام العرب بالأنساب و حفظ أيامهم و وقائعهم و حروبهم و تقاليدهم<sup>(2)</sup> ،

فقد أشار المؤرخون إلى أن حربا و أبا سفيان هما أول من نقل الخط العربي إلى الحجاز قبل الإسلام ، إذ ذاك بدأت بواكير الاهتمام باللغة العربية و ضرورة ضبط أصولها و قواعدها .

لقد بدأت حاجة العرب إلى التدوين بشكل فعلي مع تدوين القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف .

على أن المكتبات ظهرت في العصر العباسي نتيجة لازدهار الحضارة الإسلامية ، و ما رافقها من اهتمام بما عند الأمم الأخرى من معارف و علوم ، و من هنا اهتم الخلفاء و الأمراء بالمكتبات و تشجيعها الأمر الذي فرض إنشاء

المكتبات المختلفة في المدارس و المساجد ، ومن ثم توسع الاهتمام بالمكتبات الكبيرة التي تسمى درا الكتب أو خزانة الكتب ، و يسمى صاحب الخزانة بخازن المكتبة<sup>(3)</sup> و غالبا ما يتم اختياره من كبار العلماء أو الأدباء ممن لهم باع من التأليف و الترجمة ومن أشهرهم سهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة الذي كان شاعرا و مترجما و كاتباً<sup>(4)</sup> .  
ويوما بعد آخر تعددت المكتبات و تنوعت بفضل العناية الكبيرة التي أولاها المهتمون بالثقافة و العلوم ، فكانت هناك مكتبات المساجد و الجوامع ، و المكتبات الخاصة و الأكاديمية و العامة و مكتبات المدارس<sup>(5)</sup> .

## أنواع المكتبات المركزية قديماً وحديثاً :

إذ كنا قد وقفنا بإيجاز عند المكتبات بشكل عام فإننا سنذكر هنا أنواع المكتبات المركزية ، بوصفها أحد محاور الحديث المهمة ، و لعل أهم المكتبات المركزية في بلداننا العربية هي :

أولاً : المكتبات المركزية الكبرى ، أو ما يمكن تسميتها بالمكتبات القومية أو الوطنية ، إذ يمثل هذا النمط المكتبة الأم لكل دولة من الدول ، لذلك فهي التي تحظى بالأهمية الكبيرة لدى المسؤولين و رجال الدولة ، و تمتاز هذه المكتبات بأنها تلي طموح الجمهور بمختلف مستوياته و طموحه و تخصصه ، لذلك جمعت أروقتها الكتب و المؤلفات ذات الطابع الموروث و المعاصر ، أما الموروث فنعني به أن تلك المكتبات تضم نفائس الكتب من المصادر و النوادير العربية و حتى المترجمة حرصاً من القائمين عليها أن يجعلوا منها صرحاً علمياً و ثقافياً كبيراً .

ولعل اهتمام العرب بالمكتبات القومية ظهر بشكل واضح وجلي منذ العصر العباسي ، فقد أنشأ هارون الرشيد في بغداد مكتبة دار الحكمة ، تلك المكتبة التي ذاع صيتها ، و انتشر صداها في الآفاق ، ولعلها اعتمدت – أكثر ما اعتمدت – على المؤلفات العربية ، فضلاً عن الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية المختلفة كالإيونانية والسريانية و النبطية و الهندية ، وهكذا كانت مكتبة دار الحكمة تحكي تاريخاً ثقافياً ، وصرحاً علمياً يتناسب و ما وصلته الدولة العباسية من رقي وازدهار و حضارة ، والتي ظلت عامرة حتى سقوط بغداد على يد التتر عام 656 هـ .

ومن المكتبات المركزية العربية القديمة مكتبة خزانة الكتب في القاهرة ، تلك المكتبة الضخمة والكبيرة التي أسسها الخليفة العزيز بالله .

وقد احتوت على الكثير من الكتب المؤلفة بالعربية ، فضلاً عن ضمها لأقدم المصاحف و أكثرها تزييناً و تزويقاً و زخرفة ، ناهيك عن أمهات المصادر في العلوم الشرعية و اللغوية و الكتب العامة في مختلف العلوم والفنون و الآداب .

أما في دمشق فقد كانت المكتبة الظاهرية الصرح العلمي والثقافي الآخر في بلاد العرب ، فبعد أن أسسها الملك الظاهر ت662 هـ حرص على جلب المخطوطات العربية لها في مختلف العلوم و الآداب و الفنون ، فضلاً عن كتب التاريخ و علوم القرآن وغير ذلك مما احتوته على نفائس الكتب و المجلدات .

ومن أمثلة المكتبات المركزية الأخرى هي مكتبة قرطبة ، تلك المكتبة التي أسسها المستنصر بن عبد الرحمن الناصر عام 360هـ في مدينة قرطبة عاصمة الأندلس ، وهي مكتبة عامرة بالكتب العربية و المخطوطات المختلفة في شتى المعارف والعلوم كعلوم القرآن والفقه و التأريخ و الأدب و التراجم و الشعر و غير ذلك<sup>(6)</sup> .

وقد أسهمت هذه المكتبة في ترسيخ العربية وعلومها بين أقوام دخلوا الإسلام و تعلموا العربية ، و حرصوا على الاستفادة من علومها وموادها التي زادتهم ثقافة و معرفة بالعربية ، هذه اللغة التي لها الفضل الكبير في أن تقدم للإنسانية نفائس المعارف و نوادر الكتب ، و التي أثمرت نتائجهما في نهاية المطاف لتمنح الإنسانية فيضاً و عبقاً كبيرين من علوم ومواد .

لقد أفاد الغرب من تجارب العرب في إنشاء المكتبات المركزية الأمر الذي انعكس في نهاية المطاف على انتشار الثقافة والعلوم بين عموم الإنسانية جمعاء ، ومن هنا سعى الغربيون إلى إنشاء مكتباتهم على غرار ما وجد في بلداننا العربية ، لذلك تأسست في واشنطن عام 1800م مكتبة الكونغرس التي احتوت على نفائس الكتب و المخطوطات باللغة العربية و في غيرها من لغات العالم الأخرى<sup>(7)</sup> .

وفي موسكو تأسست مكتبة لينين عام 1862م التي تعد مكتبة الدولة المركزية آنذاك ، إذ كانت تضم (9) ملايين كتاباً(8) .

وفي بريطانيا تأسست مكتبة المتحف البريطاني عام 1753م التي أنشأها الملك جورج الثاني ، ناهيك عن المكتبة القومية في باريس عام 1536م التي أسست في زمن فرنسيس الأول التي احتوت على (5) ملايين مجلداً ، فضلاً عن المخطوطات التي بلغت ما يقارب (180) ألف مخطوطة(9) .

وقد احتوت هذه المكتبات المركزية الأجنبية على الكثير من الكتب و المخطوطات العربية التي عززت من دور الكتاب العربي ولغته العربية و أخذ ما يستحقه من مكانة عالمية بين لغات العالم و مورثه الإنساني بشكل عام . وفي العصر الحديث نهضت المكتبات المركزية بمفهومها الحديث في بلادنا العربية إذ توسعت الحاجة إليها و تعددت ، وقد كان من أهم الأسباب المباشرة في تأسيس المكتبات المركزية هي الحرص على إشاعة الثقافة العربية وترصينها ، فضلاً عن تنامي الروح القومية ، الأمر الذي انعكس على ضرورة الاهتمام بالمكتبات المركزية بوصفها مركزاً علمياً يشع بثقافته على مختلف نواحي الحياة الفكرية في وطننا العربي ، الأمر الذي دعا إلى التوسيع بالمكتبات المركزية في جميع الدول انسجاماً مع ما تتطلبه النهضة الفكرية والقومية الواسعة ، ومن هنا جاءت تلك المكتبات على أنواع منها :

1. مكتبات المدن الكبيرة التي تعد من أهم الصروح الثقافية و الفكرية في تلك المدن و التي كانت مرافقة لمرحلة إنشاء المطابع في الوطن العربي منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي في لبنان ، إذ طبع أول كتاب عربي في مطبعة دير مار يوحنا عام 1733م(10) ، ثم توالى المطابع مثل مطبعة بولاق بمصر عام 1821م ، التي اهتمت هي الأخرى بطباعة أمهات الكتب العربية مثل كتاب سيبويه ، و خزانة الأدب للبغدادي و غير ذلك من الكتب الأخرى .

ثم توسع العرب في إنشاء المطابع التي كانت الرافد الرئيس للمكتبات المركزية ، فقد جلب الأدباء الدومينيكيون إلى ديرهم بالموصل مطبعة حجرية عام 1856م و التي كان من أولى اهتماماتها طباعة الكتب العربية(11) . إن المكتبات المركزية أو القومية تعد من أكبر المكتبات في كل بلد من بلداننا العربية ، فقد أخذت تلك المكتبات تسميات أخرى ، منها على سبيل المثال لا الحصر ، مكتبة دار الكتب و الوثائق ببغداد التي كانت حتى أمس القريب تسمى بالمكتبة الوطنية ، والتي تضم أكثر من مليوني كتاباً .

2. مكتبة الجامعات المركزية : وتعد تلك المكتبات المنهل العلمي و الصرح الثقافي التي تهتم به كل جامعة من الجامعات ، وتسعى إلى ضم مختلف الكتب و المؤلفات (مصادر ومراجع) ، حرصاً منها على توفير الكتب العلمية للأساتذة و الباحثين و الطلبة ، و فيها تنمو المكتبات الجامعية على وفق المنحى الذي تهتم – إن لم نقل تختص – به كل جامعة عن الأخرى ، من ذلك المكتبة المركزية في جامعة بغداد ، و المكتبة المركزية في الجامعة العراقية ، و مكتبة الجامعة المستنصرية و مكتبة جامعة الرياض المركزية ، و مكتبة جامعة القاهرة و مكتبة جامعة دمشق المركزية و هكذا

....

و المكتبة المركزية الجامعية تمثل حاجة ملحة في تطوير الخدمة المكتبية مع تزايد الطلب على المعلومات من الطلبة و الباحثين ، و المكتبة الجامعية - في الوقت نفسه - إحدى المؤسسات الجامعية التي تسهم في تمثيل المعايير العلمية في تقييم الجامعات و تقويمها و لاسيما فيما يشهده العالم اليوم من تطور في التكنولوجيا المعلوماتية و التوجه الرقمي .  
ومن هنا أضحت الحاجة ملحة في تطوير الخدمة المكتبية مع تزايد الطلب على المعلومات و بكل أشكالها و بلغات متعددة ، فضلا عن حاجة المكتبات المركزية إلى تطور معلوماتي و تطور تقني من خلال الاعتماد على الوسائل التكنولوجية الحديثة سواء في تخزين المعلومات و تصنيفها و عرضها ، و ذلك كله يحتاج إلى ثورة شاملة في عالم المكتبات الجامعية و ذلك بإقامة الدورات و المعارض و الندوات للتعريف بالمكتبات الجامعية و محتوياتها و كيفية الحصول على المعلومات ، وهذا بدوره سيؤدي إلى النهوض بواقع المجتمع الجامعي .

والمكتبات المركزية في الجامعات أخذت تسهم في رفد البيئة العلمية الجامعية بكل ما تحتاج من خدمات على وفق نظام علمي و متطور و مدروس من حيث الحفظ و التصنيف و الفهرسة بوصفها مركزا علميا متقدما في كل جامعة لأنها الرديف العلمي للمعلومات التي يسعها لها الطلبة و الباحثون ، فإذا كان الأستاذ الجامعي يلقي المحاضرة فإنه يحيل الطلبة إلى خزائن المكتبة الجامعية من أجل اغناء المعلومة ، و التوسع بها و الإلمام بأبعادها بشكل مفصل و دقيق .

3. مكتبة الكليات المركزية : وهي مكتبات أكاديمية متخصصة للبحث و الدراسة ملحقه بالكليات العلمية ، ولعل السمة الغالبة على هذه المكتبات هي الحصول على الكتاب الذي يناسب توجه الكلية العلمي .  
و هذا النوع من المكتبات له جذور في موروثنا العلمي ، إذ أنشأ هارون الرشيد مكتبة دار الحكمة التي تعد أفضل مثال على هذا النمط من المكتبات (12) .

4. المكتبات العامة : وهي مكتبات اتسمت بتلبية اهتمامات عموم المجتمع فقد ضمت مختلف الكتب و في شتى المعارف و العلوم و إشاعة الثقافة العامة ، إذ تفتح أبوابها لعموم القراء و الباحثين .  
و المكتبات العامة اليوم منتشرة في شتى المدن الكبيرة و المتوسطة و يسهم في اغناء رفوفها المسؤولون و الميسورون من أبناء تلك المدن .

و من أمثلة المكتبات العامة في تاريخنا العربي مكتبة دار العلم في بغداد التي أنشأها الحاكم بأمر الله العباسي سنة 395هـ (13) .

و هذا كله إنما يؤشر بوضوح أن المكتبات حاجة ملحة في كل العصور و الأزمان ، إذ تمثل جهد الأمة - أمة - و عصارة فكرها ، و هي فضلا عن ذلك تتماثل في غاياتها و أنواعها على مستوى الأمة الواحدة ، أو حتى على مختلف الأمم والشعوب ، و هذا مرده - كما نعتقد - لأن الفكر الإنساني حريص على أن يوثق نتاج أبنائه و يسعى للحصول على ما عند الأمم الأخرى من نتاج فكري سعيا وراء الاشتراك و التفاعل و التكامل ، مع ضرورة الإشارة إلى أن لكل مكان خصوصياته ، و لكل زمان ظروفه ، و لكل عصر اهتمامه ، مثلما يفصح - في الوقت



نفسه — عن خصوبة اللغة العربية و خصوصياتها التي جعلت منها إحدى أهم لغات العالم التي قدمت للإنسانية ما لم تقدمه أية لغة أخرى غيرها .

## المكتبات المركزية وعلاقتها باللغة العربية :

إن علاقة المكتبة باللغة العربية علاقة وطيدة فمن المعروف أن المكتبات عموماً لا تقدم خدماتها إلا بالاعتماد على الفهرسة ، و التي تعني تنظيم المكتبة ، وترتيب ووضع ما تحتويه من مؤلفات على نظام معين يسهل الوصول إلى المكتبة المطلوبة ، ومن ثم الحصول على المعلومة بأقصر الطرق وأيسرها .

واعتماداً على ما سبق فقد سعت المكتبات المركزية في وطننا العربي إلى إعطاء وصف بيلغرافي كامل لكل كتاب في المكتبة كي يميزه من غيره وذلك باعتماد معلومات دقيقة ومحددة عن بعض الجوانب المهمة لكل كتاب ويتم تسجيلها على البطاقة المعدّة للكتاب والتي توضع في صناديق خاصة بالمكتبة على وفق الحروف العربية ابتداءً من الألف وانتهاءً بالياء .

لقد اعتمدت المكتبات العربية نظام ديوي العشري المصنف من قبل واضعه ملغل ديوي عام 1876م وهو أقدم التصانيف العالمية الحديثة و أكثرها سعة وشهرة ، وإليك باختصار تصنيف هذا النظام :

100 المعارف العامة

100 الفلسفة

200 الدين

300 العلوم الاجتماعية

400 اللغة

500 العلوم البحتة

600 العلوم التطبيقية

700 الفنون الجميلة

800 الآداب

900 التاريخ ، الجغرافية ، التراجم<sup>(14)</sup> .

ولا أريد الاسترسال أكثر في بيان تنظيم المكتبات العربية بقدر ما أريد الإشارة إلى أن المكتبات العربية قد نظمت على وفق هذا النظام العالمي مع ضرورة معرفة موضوع الكتاب وعنوانه ومؤلفه و إخضاع ذلك للحرف العربي الذي يعوض عنه بالأرقام التي تناسبه ، إذا تبدأ علاقة المكتبات باللغة العربية منذ تنظيم فهرسها ، وهي بلا شك علاقة نشأة و تعاضد و اشتراك .

أما الأمر الآخر المهم الذي يوضح علاقة المكتبات المركزية باللغة العربية فهو حرص المؤلفات التي تحتويها مكتباتنا العربية على سلامة اللغة العربية ، ولاسيما أن التأليف بالعربية هو الوسيلة و الغاية التي يسعى لها أبناء هذه الأمة على مر التاريخ و ازداد الأمر أهمية في العصر الحديث ، الذي تنوعت فيه المعارف وكثرت فيه اللغات ، وتلافت فيه الأفكار ، وعظم فيه التواصل ، وسما فيه الاختيار ، لذلك زاد الأمر ارتباطا بين المكتبة و العربية .

إن الناظر بدقة لما في مكتباتنا المركزية من مؤلفات يجد أن نسبة المؤلفات منها بالعربية يشكل القسم الأكبر ، فقد شكلت نسبة الكتب المؤلفة باللغة العربية في المكتبة الوطنية ببغداد و التي تسمى اليوم بدار الكتب و الوثائق إلى الكتب المؤلفة باللغات الأجنبية 74% ، و تبلغ النسبة بالمكتبة المركزية في جامعة بغداد 70% ، و النسبة في المكتبة المركزية للجامعة العراقية 92% .

إن هذه النسب تشكل بما لا يقبل اللبس نسبة عالية ، و أرقاما مرتفعة و ذلك مرتبط بطبيعة البيئة الثقافية و العلمية التي ترتبط بها المكتبة ، الأمر الذي فرض أن تكون طبيعة المؤلفات التي تحتويها تلك المكتبات مؤلفة باللغة العربية .

ومن جانب آخر فإن المدقق في سبب ذلك يجده مرتبطا - كذلك - بطبيعة الموضوعات التي تحتويها المكتبات ، و التي يمكن لنا أن نوزعها ضمن محاور معينة يفرض موضوعها أن تنحو في تأليفها منحى عربيا خالصا ، الأمر الذي من خلاله تتعزز مكانة اللغة العربية في المكتبات المركزية ، ولعل هذه المحاور التأليفية لا تبتعد عن :

1. محور الدراسات القرآنية : وهو محور ضخم ومهم و رئيس في المكتبات المركزية في بلداننا العربية ، إذ كثر الاستشهاد بالقرآن الكريم في شتى علوم المعرفة ، لذلك ضمن المؤلفون كتبهم نصوصا كثيرة من القرآن الكريم ، و هذا يتطلب أن تكون اللغة العربية الركيزة الأساسية في تأليف الكتب الفقهية بمذاهبها المختلفة ، فضلا عن كتب اللغة و النحو بفروعها ، ناهيك عن التأليف في علوم القرآن الكريم من غريب ألفاظه و معانيه ، و القراءات القرآنية و الوقف و الابتداء و غير ذلك .

2. محور دراسات الحديث النبوي : يعد الحديث النبوي الشريف مصدرا مهما من مصادر الدراسات اللغوية و الفقهية ، إن لم يكن المصدر الثاني - بعد كلام الله - في مجال الحياة الإسلامية و التشريع الإسلامي ، و يأتي الحديث النبوي بعد القرآن الكريم في اهتمامه باللغة العربية من حيث الفصاحة و البلاغة و لاسيما الكلام الصادر عن رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم).

لقد اهتمت مكتباتنا المركزية باحتواء المؤلفات التي استشهد بها اللغويون و الفقهاء بالحديث النبوي لتوثيق نصوصهم ، إذ تعد الدعامة الأولى التي قام عليها بناء المعجم العربي .

و لم يختلف اثنان في أهمية الحديث النبوي الشريف ابتداءً من الخليل بن احمد الفراهيدي ت175هـ و انتهاءً بالزيدي ت1067هـ في كتابه تاج العروس ، فأصبحت المكتبات المركزية في جلّ وطننا العربي بأمس الحاجة لضم تلك المؤلفات و منها كتب الأسانيد لألفاظ الحديث النبوي الشريف و علومه المختلفة الذي جاء موازيا للاهتمام بالقرآن الكريم .

وفي المحورين معا خدمة للغة العربية ، إذ جاءت تلك الكتب و هي تشكل الركيزة الأساسية و النواة الرئيسة للمكتبات المركزية التي سعت لاقتناء مثل تلك المؤلفات التي تعد من أمهات المصادر التي لا غنى للمكتبة عنها .

3. محور الأدب و النقد : لا يخفى ما يمثله الشعر العربي من أهمية لدى الباحثين و الدارسين و المؤلفين ، إذ يعد أحد أهم ينابيع الشواهد و المصادر في التأليف بمختلف أنواع الدراسات اللغوية و لاسيما مدرستي البصرة و الكوفة ، و هذا ما فتح الباب واسعاً أمام المؤلفين من ذوي التأليف اللغوي و النحوي ، و نظرا للعلاقة الوثيقة بين الشعر و العلوم القرآنية ، فقد جاء التأليف في الشعر و قضاياها ما يمثل الحلقة الأخرى المكملة لعلوم الشريعة التي حرصت المكتبات المركزية على ضمها ، يقول ابن عباس ت68هـ (إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر ، فإنه ديوان العرب)<sup>(15)</sup> .

و الشعر العربي على ضخامته و ما ارتبط به من تأليف في النقد و الأدب و غيرها مثل الرافد الآخر من روافد المكتبات المركزية ، و الذي أسهم في ترسيخ اللغة العربية و أخذ مكاتبتها المناسبة لها في تلك المكتبات ، إذ قلما نجد ديوانا شعريا عربيا بغير لغته ، و ذلك لأننا قد نؤلف كتابا في التاريخ مثلا في لغة أجنبية ، وكذلك الأمر في العلوم

الصرفة ، بيد أن التأليف في الإبداع الفني عموماً يكون أكثر صعوبة للمنتج في غير لغته ، إذ يقل الإبداع و يضعف الفن ، و يذهب التأثير ، وهكذا فالشعر على اليقين يبقى أكثر معاندة في محليته .

4. محور الكتب العلمية و العامة في شتى علوم المعرفة : وهو محور مهم و متنوع وضخم يشتمل على شتى المؤلفات في مضمار الكتب العلمية بتخصصاتها المختلفة كالطب و الرياضيات و الفلك و العلوم الطبيعية ، و كذلك الكتب ذات المنحى الثقافي و المعرفي الخاص و العام .

إن تنوع مؤلفات هذا المحور و غزارته جعله رافداً آخر من روافد المكتبات المركزية ، إذ به تكتمل المكتبة وتتعرز به مكانة اللغة العربية و أخذ دورها المناسب في إطار العلاقة بين المكتبة المركزية و اللغة العربية ، وقد تنبه القدماء لمثل تلك المؤلفات ، إكمالاً للمعرفة و سداً للثقافة ، و كذلك فعل المحدثون الذين كان همهم و ما يزال الحصول على شتى المطبوعات و تصنيفها في الإطار الموضوعي الذي يناسبها .

ولا شك أن اللغة العربية في اللغات الحية التي أسهمت بشكل فاعل و مؤثر في رفد الإنسانية عموماً بمختلف الكتب و الإبداعات العلمية و الأدبية التي كتبها أبناء هذه الأمة فضلاً عن غيرهم من المستشرقين و في شتى الميادين و التخصصات ، و من هنا فإن الرسالة العلمية التي تضطلع بها المكتبات المركزية في مجتمعاتنا العربية اليوم هي تقديم أفضل خدماتها بهذه اللغة التي تمتلك من المطاوعة و الثراء و القدرة على التعبير و الدلالة الأمر الذي حرصت على احتواء مؤلفاته جميع المكتبات المركزية باللغة العربية - كما يراها الباحث - تكمن في :

1. إن البيئات الثقافية التي وجدت فيها المكتبات المركزية هي بيئات عربية خالصة ، لذلك حرصت هذه المكتبات إلى الحصول على الكتاب العربي الذي يسد حاجة طالب المعرفة باللغة العربية .

2. من الدواعي التي أسهمت في إشاعة اللغة العربية في المكتبات المركزية هي طبيعة العلوم المقدمة بهذه اللغة ، ولعل أهم هذه العلوم و أكثرها خصوصية علوم القرآن الكريم ، إذ حرصت المكتبات المركزية الحصول على الكتب المرتبطة بالدراسات القرآنية من حيث تفسير القرآن و بيانه و تصويره وكل ما يرتبط به ، حتى أننا إلى عصر قريب واجدون من يعارض ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية لقدسية هذا السفر الخالد أولاً ، و لكونه يمثل هوية هذه اللغة المتجذرة في أعماق التاريخ ، و نعني بها اللغة العربية التي تسعى من خلال هويتها القومية و قدراتها البيانية و الدلالية أن تجد لها مكاناً مناسباً في البيئات غير العربية .

3. ثمة علاقة صميمة بين الجامعات و مجاميع اللغة العربية في مختلف البلدان العربية متمثلة بضرورة الحفاظ على اللغة العربية من خلال الحفاظ على المصطلح العربي في مختلف التخصصات ، و لاسيما العلمية منها و التي بحاجة إلى تعريب تلك المصطلحات المرتبطة بها ، و من هنا رفدت هذه المجاميع المؤسسات العلمية المختلفة ومنها المكتبات المركزية بالاصدرات من المجالات العلمية المتخصصة و الكتب المؤلف التي تؤكد أصالة هذه اللغة و قدرتها على مطاوعة اللغات الأجنبية و إجبارها على خضوع المصطلح الأجنبي للجذر اللغوي في لغتنا العربية ، الأمر الذي فرض دخول مؤلفات جديدة إلى خزائن المكتبات المركزية التي تعضد هوية هذه اللغة و تؤكد أصالتها .

4. للمكتبات المركزية إسهامات فاعلة في اقتناء الكتب المترجمة إلى اللغة العربية ، و لذلك حفلت رفوف المكتبات المركزية بالكثير من تلك الكتب لتكون إسهامات جديدة مضافة إلى المؤلفات العربية اغناءً للمكتبة ، و تلبية لحاجات الباحثين و الدارسين و المهتمين بالعلوم العلمية و الإنسانية على حد سواء .

5. عدم تشجيع الكتب المؤلفة باللغات المحلية (اللهجات العامية) وعدم اللهات وراء اقتنائها حرصا من تلك المكتبات على المحافظة على اللغة العربية الفصحى و ترسيخ مكانتها الكبيرة و الميزة بين عموم المتلقين ، و من هنا أسهمت المكتبات المركزية بشكل فاعل و مؤثر و ملموس في تضيق دائرة التأليف باللهجات المحلية ، لأنها إن سعت إلى تشجيعها تكون قد أساءت للغتنا العربية المعطاء ، و لكرست القطرية الضيقة في إطار اللغة المحلية العامية ، إذ ذاك تضع هوية العربية الفصحى التي هي في النهاية تمثل هوية أمة باجمعها ، فالعامية - كما يرى الباحث - هي كالداء الذي يسعى إلى ان ينخر في جسد الأمة ، و يسىء إلى ثقافتها ، و يسعى إلى ضياع هويتها في نهاية المطاف ، و بذلك يقل التلاقي ، و يقتل الإبداع ، و تنحسر الفائدة .

6. للمكتبات المركزية - بوصفها إشعاعا فكريا و علميا مركزيا - أثر في الحفاظ على هوية هذه اللغة بعد أن نظمت على وفق معلوماتي حديث ، و لاسيما بعد دخول المكتبات الرقمية ، لذلك دخل نظام اللغة العربية إلى هذه المكتبات بالشكل الحديث مسيرة للتطور الرقمي والتكنولوجي الحاصل في تقديم المعلومة للمتلقي .

7. ثمة علاقة وثيقة بين المكتبات المركزية واللغة العربية ، وهي علاقة تفصح في أدق حلقاتها عن أصالة هذه اللغة التي تمثل - في الوقت نفسه - أصالة الكتب المؤلفة في إطارها ، ولعل خير دليل على ذلك غزارة الكتب المؤلفة في مصطلحات العلوم والفنون ، حتى أن الأمر أصبح أقرب إلى المعاجم العلمية التي تعنى بعموم المصطلح ، وهذا ما تنبه إليه العرب منذ البدايات الأولى للتأليف ، فقد ألفت كتب كثيرة في المصطلح العلمي منذ القدم ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

إحصاء العلوم للفارابي ت339هـ ، و مفاتيح العلوم للخوارزمي ت387هـ ، و مفاتيح العلوم للسكاكي ت626هـ ، والتعريفات للجرجاني ت816هـ ، و مدينة العلوم للرومي ت885هـ ، و جامع اصطلاحات العلوم و الفنون للأحمد نكري ت1173هـ .

إن ذلك كله يعطي مؤشرا لدور المكتبات المركزية في تعزيز مكانة اللغة العربية ، هذه اللغة التي أضحت مع الزمن أهم مفاصل التأليف الذي رقد عموم المكتبات بمختلف الكتب و في مختلف العلوم و الموضوعات التي أخذت مكانتها المرموقة بين التراث الإنساني و بما يعزز تلك المكانة و يقويها و يعضدها بالشكل الذي يجعل من الكتاب العربي مطلوبا في كل زمان و مكان .

## الخاتمة :

و بعد ...

فالبحث يكون قد انتهى الى جملة نتائج أهمها :

1. لا غنى لأية حضارة على مر التاريخ عن المكتبات بوصفها إشعاعيا في الحضارة و الفكر و الثقافة .
2. إن وجود المكتبات في المجتمعات الإنسانية يعني بالضرورة حضور فكر أبنائها من العلماء و الباحثين و المؤلفين على مختلف تخصصاتهم العلمية و الإنسانية الأمر الذي يجعل من الكتاب العربي رافدا ثرا ومهما من روافد إدامة التواصل بين الماضي و الحاضر .
3. للحضارات العربية القديمة إسهامات فاعلة و مؤثرة في تأسيس المكتبات المركزية و التي نالت اهتمام المسؤولين من خلفاء و أمراء .

4. أسهمت المكتبات المركزية قديما و حديثا في ترسيخ تعزيز مكانة اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف ، فضلا عن الشعر العربي ، ناهيك عن نفائس العلوم و الفنون .
5. فتح العرب لغيرهم من الأمم الأخرى الباب واسعا لبناء المكتبات التي تأسست على غرار ما عند العرب ، والتي كانت - هي الأخرى - حريصة أيضا على اقتناء الكتاب العربي ، الأمر الذي أسهم في تعزيز مكانة اللغة العربية و أخذ مكانها الذي تستحقه بين اللغات الأخرى .
6. رصد البحث تنوع المكتبات المركزية ، فقد كان بعضها يمثل الدولة القومية أو الوطنية ، وارتبط البعض الآخر بالجامعات أو الكليات أو المدن .
7. إن علاقة اللغة العربية بالمكتبة علاقة تأسيس و تعاضد و اشتراك ، ويظهر ذلك من خلال تنظيم المكتبات على أساس الحرف العربي .
8. إن خصوبة موضوعات المؤلفات العربية وتعدادها و تنوعها قد فرض هو الآخر دخول الكتاب العربي للمكتبة العربية و حتى المكتبات المركزية الأجنبية بشكل غزير و متواتر و دائم .
9. كان للمكتبات المركزية الإسهام الفاعل ، والحرص الأكيد على تشجيع الكتاب العربي و الحصول عليه لأنه يمثل في نهاية المطاف عصارة فكر أبناء الأمة من المفكرين و المبدعين .
10. للتعريب و الترجمة بوصفهما مفصلين مرتبطين باللغة العربية دور آخر فاعل و مهم في تعزيز مكانة اللغة العربية و رفد المكتبات المركزية بالكتب الأجنبية سدا للنقص و إكمالا للمعرفة في بعض مفاصل العلوم والفنون المختلفة . تلك أهم النتائج و ثمة نتائج أخرى يجدها القارئ مبثوثة في ثنايا البحث .

## هوامش البحث و مراجعه :

1. ينظر : خزائن الكتب القديمة في العراق ، كوركيس عواد ، بغداد ، مطبعة المعارف ، 1948م ، ص 51 .
2. ينظر : الفهرست لابن النديم ، بيروت ، مكتبة خباط ، 1964-1970م ، ص 338 .
3. ينظر : المصدر نفسه و الصفحة .
4. ينظر : الكتب و المكتبات المدخل إلى علم المكتبة والمعلومات ، عامر ابراهيم القنديلجي ، وآخرون ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1979م ، ص 57 .
5. ينظر : معجم الأدباء : ياقوت الحموي ، دار الرفاعي ، د.ت ، ج 6 ، ص 216 ، خزائن الكتب العربية في الخافقين ، فيليب دي طرازي ، بيروت ، وزارة التربية الوطنية و الفنون الجميلة ، دار الكتب ، 1947م ، 1951م ، ج 1 ، ص 180 .

6. ينظر : المكتبات في الإسلام ، نشأتها و تطورها و مصائرها ، محمد ماهر حمادة ، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر ، 1970م ، ص 133 .
7. ينظر : المكتبة و منهج البحث ، عبد الجبار عبد الرحمن ، البصرة ، دار الطباعة الحديثة ، 1972م ، ص 24 .
8. ينظر : الكتب و المكتبات ، ص 170 .
9. ينظر : الكتب و المكتبات ، ص 175 .
10. ينظر : تأريخ الطباعة في الشرق العربي ، خليل صابات ، القاهرة ، دار المعارف ، 1958م ، ص 17 .
11. ينظر : المصدر نفسه و الصفحة .
12. ينظر : خزائن الكتب العربية في الخافقين ، ص 180 .
13. ينظر : خزائن الكتب القديمة في العراق ، ص 200 .
14. ينظر : التصنيف في المكتبات ، أوديت بدران ، بغداد ، مطبعة الجامعة ، 1976م ، ص 29 .
15. ينظر المصدر نفسه و الصفحة .